قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى بك
مدير مصلحة الكيمياء

ظل يغدو ويروح بين عماله فى هذا البيت فلا يستقر به مكان ، وظل يشرف فيهم على تركيب مركبات جديدة رجاء أن تكون أكثر إبداعا من المركب الذى كان ، ودار فى كل حجرة وساز إلى كل ركن فلم يستطع أحد حتى قدريت أن يتتبع أثره . وأملى كاتبته الآنسة مرثا مركرت Martha Marquardt مئات من الكتب اتسعت لكثير من حماسته وحرارته ، وقرأ آلافا من الكتب جاءته من كل ركن من اركان الأرض ، واحتفظ بتقرير دقيق عن كل حالة بل عن كل جرعة من الجرعات الخمس والستين ألفاً من السلفرسان التى حقنها الحاقنون فى بقاع الدنيا فى عام ١٩١٠ . وكان احتفاظه بها على مثال هذا النظام الغريب الذى تاصل فى هذا الرجل : كتبها جميعاً على صحيفة ورق كبيرة دبسها فى باطن باب القمطر الذى كان فى مكتبه ، وغطت الصحيفة باطن هذا الباب من أعلاه إلى أسفله فكان كلما طلب شيئاً فى أسفل الصحيفة تقاصر وتقرفص ، وكلما طلب شيئاً فى أعلاها تطاول على أصابع رجليه وتمدد ، وكان فى كلتا الحالتين يركز بصره تركيزاً ، ويعمله إعمالا ليقرأ سطورها وهى خطوط دقيقة مهملة معماة.

وتزايدت التقارير فجاءت بأنباء عن حوادث للشفاء غريبة بديعة حبيبة تلذ قراءتها ، ولكنها تضمنت كذلك أنباء مسيئة متجهمة تتحدث عن فواق وقىء ثم تصلب فى الأرجل وتشنج فى الجسم يعقبه الموت . وجاءت الأنباء الفينة بعد الفينة بموت مرضى كان يجب ألا يموتوا ، وجاء موتهم عقب حقنهم بالدواء .

ألا ما أشد ما اشتغل إرليش ليفسر هذه الأحداث ! ألا ما أشد ما قسا على نفسه ونحل من جسمه ليتجنب هذه الأرزاء ، فما كان إرليش بالرجل الجامد الذى لا تهزه مصائب الخلق ولا تؤلمه آلام الناس ، فأجرى التجارب العديدة ، وكتب الكتب الكثيرة يستفسر عن تلك الرزايا كيف وقعت ، وعن المحاقن كيف ضربت ، وكان يجلس فى الأمساء يلعب الورق وحده ، فيغلبه الفكر فى تلك الحوادث ، فيأخذ يكتب على هوامش الورقات ما يعن له من تفسيرات ، أو هو يكتبها على ظاهر مجلات قصصية تحكى عن فظائع وجرائم بوليسية كان يفزع دائما الى قراءتها ظناً منه أن فيها دون سواها راحة البال المكدود ورياضة النفس المريضة ، ولكنه ما استروح قط ولا استراض ، وكيف يفعل وهذه البلايا تتقفى أثره فتذهب بالذى كسبه من مجد عظيم .

وزادت أسارير جبينه تغضناً ، وازدادت تعمقاً ، واسود ما تحت عينيه الزرقاوين ، وبقيت فيهما بقية ما فتئت ترقص من تلك الفكاهة الهادئة المستحية .

فهذا المركب رقم ٦٠٦ نجى آلافا من الموت ، ونجى آلافا من الجنون ، وخلص آلافاً آخرين مما هو شر من الموت : من قطيعة المجتمع إياهم لما ضرب المكروب فى أجسامهم ضرباً ، وأكل منها أكلا ، حتى صارت مناظرهم فى العين قذى وفى الأنفس تهوعاً . ولكنه بعد تنجيته المرضى بهذه الآلاف اخذ يقتل منهم بالعشرات ، وأخذ إرليش ينهك جسمه الناحل أو ما تبقى له من جسم ، حتى أصبح خيالا ، وذلك ليفسر أحجية عز على الحكماء تفسيرها . ولقد مضى الآن على آخر سيجارة دخنها إرليش عشر سنوات ، والاحجية ما زالت أحجية . فترى من هذا أن النجاح العظيم الذى كسبه إرليش كان أكبر حجة على بطلان نظرياته . قال : « ان المركب رقم ٦٠٦ يتحد

اتحاداً كيميائياً بالمكروب فيقتله، وهو لا يتحمس الجسم فهو لا يناله بسوء » . هذه نظرية من نظرياته فأين هي مما جرى ؟

إن المركب رقم ٦٠٦ مركب ذو كيمياء معروفة ، ولكن تفاعله مع الجسم تفاعل خاف مجهول ، وأخفى منه كيمياء هذا الجسم الإنسانى العجيب ، هذه المكنة الحية الغريبة ، هذا الطلّسم الذى لا نفهم إلى اليوم منه وآسفاه كثيراً . ولقد أخطأ إرليش ونال عاقبة خطاه ، لأنه لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن رصاصته المسحورة يطلقها آلاف المرات فتصيب غايتها من المكروب آلاف المرات ، ولكنها قد تطيش أحيانا فتصيب غير غايتها فتقتل العدو والصديق . على أنه لا تثريب اليوم عليه ولا ملامة ، فإن يكن أردى العشرات فقد رد الصحة والسلامة على الألوف . وصادة المكروب العظام ماذا كانوا سوى سادة مقامرين ، إذن فلنذكر إرليش بالحمد ، ولنذكره بشجاعته وجرأته ومخاطرته ، ولنذكره بما دفع من البؤس عن ألوف كثيرين

ولنذكر بأنه أنار سبيلا جديدة سيسلكها صادة المكروب لا محالة من بعده يبحثون فيها مثله عن رصاص جديد يطلقونه على مكروب جديد

وليس هذا بالأمل البعيد أو الأمنية الخائبة . فقد بدت فعلا تباشير ما نرجوه من بعد إرليش . فان قوماً بحاثا من غير ذوى النباهة وذائعى الصيت قاموا فى مصانع الأصباغ بمدينة إلبرفلد Elberfeld [1] يترسمون خُطى الأستاذ الأكبر، وبعضهم من أعوانه الأقدمين ، فكدوا وكدحوا كما كانوا فى خدمته يكدون ويكدحون ، حتى وقعوا على عقار جديد غريب أبدعوه إبداعا . وقد احتفظوا بسر تركيبه ، وأسموه « باير رقم ٢٠٥ » Bayer 205 . وهو مسحوق عادى المظهر لا يهولك منه شيء ، ولكنه يشفى من مرض النوم الذى ينتهى دائما بالموت فى بلاد روديسيا Rhodesia وبلاد نياسا Niassland بأفريقيا . وإن كنت لا تزال تذكر فهو الداء الذى كافحه الرجل الجلد الجلد افيد بروس DavidBruce آخر كفاح فى حياته ، وارتد عنه مغلوباً . فهذا العقار يفعل فى خلايا الجسم وسوائله أفعالا لو سمعتها لحسبتها خرفا أو خيالا . ولكن أحسن ما فى الحسن منها أنه يقتل المكروب قتلا ، وأنه يقتله قتلا دقيقا جميلا كاملا شاملا لو سمع به إرليش

(١) سنأتى فى ختام القصة على ختام لها بلغ المترجم يحكى ما جرى بعدها إلى الآن

لتحركت أشلاؤه فى قبره سروراً واغتباطا . فإن كان فى المكروب ما لا يقتله ، فهو على الأقل يَحُـد من نشاطه ويقلم من أظفاره فيجعله أنيساً مامونا . على أن حكاية هذا العقار لم تختم بعد فلندع للأيام ختامها

وإنى لواثق وثوق بطلوع الغد بأن المستقبل كفيل بخلق صادة للمكروب غير من ذكرنا يطلعون على الناس برصاصات غير ما وصفنا ، ستكون أكثر سلاماً على الانسان وأشد حربا على المكروب وأفتك بكل جرثوم خبيث شديد المراس حكينا حكايته فى هذه القصة فلنذكر إرليش بانه فاتح هذا الباب وأول سالك لهذه الطريق

وقبل أن أختم هذه القصة أجد فى صدرى سرا لا بد من فضحه قبل الختام : ذلك أنى أحب صادة المكروب هؤلاء ، من لوفن هوك إلى إرليش ، ليس على الأخص للكشوفات التى كشفوا ، ولا للنعم الجليلة التى بها على البشرية أنعموا ، ولكنى أحبهم على الأكثر لأنهم رجال أى رجال ، أحبهم لرجولة جميلة فيهم سأظل أذكرها لكل فحل منهم ما استطاعت ذاكرتى وعيا

ولهذه الرجولة الجميلة أحببت إرليش . كان إرليش رجلا مغراما مراحا يحمل أوسمته معه فى صندوق أخلاطا أملاطا لا يدرى فى أى المحافل والمآدب بأيها يزدان . وكان رجلا قليل التؤدة فزاعا يخطر له الخاطر فيفزع لجاءة إليه وينسى ما هو فيه . جاءه رجل من إخوانه بحاث المكروب ليخرج به العشية على شراب ، وكان إرليش فى بيته فى حجرة نومه يلبس ويتهيأ للخروج ، فما علم بمقدمه حتى خرج فى قميصه يحييه

وكان رجلا صموتا معتكفا . قال له بعض عباده يشير إلى المركب رقم ٦٠٦ : « إنه عمل رائع من خلق عقل جبار . إنه كشف من كشوفات العلم الرائعة » . فقال له إرليش معيداً : عمل رائع من خلق عقل جبار ، وكشف رائع من كشوفات العلم ! ؟ لا يا زميلى العزيز ، بل هى فلتة واحدة من فلتات الحظ جاءتنى بعد سنوات لم أعرف فيها إلا إلى الخيبة سبيلا »

احمد زكى

(استدراك) ذكرنا فى مقال ٢٤ مايو ان فى بعض القرى الأوروبية يقوم القائم بأعمال البريد بأعمال أخرى كالصيدلة أو البقالة ونحوها . وقد نمى إلينا أن بعض اخواننا من الصيادلة استاء من الجمع بين الصيدلة والبقالة فى هذا العطف البغيض . وما قصدنا بالطبع تحقيرا للصيدلة وإنما تقريرا للواقع . فالصيدلى هناك فى أطراف البلاد قد يقوم بأعمال البريد وبيع الشكولاتة والحلوى وبكل عمل يستطيعه ما دام يملأ به وقته ويؤدى به الى مكسب شريف . فالاعتبارات التى أساءت الى احساس اخواننا وقلقهم لا وجود لها هناك . وقديما رعى الأنبياء الخراف وباعوا البقول وغير البقول فى الأسواق

أحمد زكى